

التَّرْقِيَةُ فِي مِعْرَاجِ التَّرْبِيَةِ

عبد الله بن سليمان العبدالله (ذو المعالي)

<TD< tr/>

إن من معاني (التزكية) و (التربية) النماء و الترقى بالشيء نحو الكمال ، و الإيصال له نحو المطلب المرموق ، و هذا المعنى مضموم مع المعاني الأخرى التي تعني (التحلية) بكل فضيلة ، و (التخلية) من كل رذيلة ، و بضمّ ذاك مع ذين يكون الشأن واضحاً بيّناً ، و تتحصّل على قاعدة أمّ في التربية الذاتية . تلك هي قاعدة : الترقية في التربية ، إننا حين نسعى في تربية ذواتنا و غيرنا فإننا نطمح من تلك التربية بالوصول إلى أمرٍ من الغايات الكمالية ، و نصل إلى هدفٍ سامٍ شامخ ، و هذا من أسس المقاصد التربوية . و الترقية التربوية ملازمة للطموح ، و مجارئة للهمة ، و مصاحبة للعزيمة ، و من تخلّى عنها ممن يأمل من نفسه أن يكون ذا طموحٍ و همّةٍ و عزيمةٍ فليس من آماله في شيء ، و لا من أمانيه في حظٍ . ذلك أن الهمة السعيّ في تحصيل الغاية مع بذل ما دونها لها ، و الماكث على حالٍ في تربية نفسه و تهذيبها ليس آتياً بمعنى الهمة ، و لا جائياً بحقيقتها . و الطموح ذا نظرٍ بعيد ، و أفقٍ واسعٍ يزُمُّ المجد غايةً ، و يُبصرُ الكمالَ نهايته ، و الباقي على وتيرةٍ واحدة على النقيض من هذا المعنى . هذا فيما هو من خصائص النفس و رغائبها ، كيف إذا كان من المقررات في الشريعة تحريضُ الشارع عباده لتحقيق الترقية التربوية ، يقول الله _ تعالى _ : { و في ذلك فليتنافس المتنافسون } ، بل مايرّ الله بين عباده فجعلهم على مراتب ؛ المقربين ، ثم أصحاب اليمين ، ثم أصحاب الشمال ، و لم يكن هذا

التمايزُ بينهم , و التقسيم لهم إلا لبيان أن ذلك بسبب السعي منهم في الترقية التربوية .

و يقول النبي _ صلى الله عليه وسلم _ : 'مَنْ بطأ به عمله لم يسرع به نسبه ' , و المراد واضحٌ بيّنٌ ظاهر .

و كان من كلام العلماء التربويين في سَوَاقِ الحديثِ عن الليلِ و أنسِ الصالحين به و فيه أن جعلوه محلَّ السباق , و ساحة التنافس , و مقام التمايزِ بين العباد في الأسبقِ إلى الله _ تعالى _ , و لقد كان أبو بكرٍ _ رضي الله عنه _ سباقاً إلى الخيرات , راقياً بنفسه في الفضائل لذا عَجَرَ عمر _ رضي الله عنه _ عن دَرْكِ أبي بكر , أو مضارعته , و من أجل ذا _ أيضاً _ استحق أبواب الجنة الثمانية , و في الأمة كثيرون نالوا مقامات الرقي التزكوي , و لا يزال فيها بقية باقية , فمن ذا و ذاك نعرف مدى قيمة الترقية التربوية , و منتهى نفاستها للراغب في الكمال .

الترقية في مجال التربية لها أنواع و أحوال , منها :

أولاً: الترقى في الوسائل العلمية النظرية , فليس من التربية في شيءٍ أن يبقى المرَبِّي على وسيلةٍ واحدةٍ يُصَبِّحُ عليها و يُمسي , و يَشَبُّ و يشيب , فإن الركود على الشيء _ مع وجود أفضل منه _ دنو في الهمة , و ضعفٌ في العزيمة .

التقنية الحديثة أتت بوسائل تعليمية و تربوية كثيرةً جداً , فالتنوع بينها مطلبٌ مهم جداً , و الأخذ بها من عيون الحكمة التزكوية , و من سوابل الترقية التربوية .

و يأخذُ المرءُ المرَبِّي على أي وسيلةٍ تتناسبُ مع همته و هدفه و قدراته , و

لكن بشرطين :

الأول : أن تكون وسيلةً مباحةً ، فلا يجوز الاعتماد على الحرام للوصول إلى الحلال ، فإن الغايات لا تبرر الوسائل ، و في الوسائل المباحة ما يُغني عن الحرام أو المُشْتَبَه فيه .
و الوسائل المُحَرَّمَة متنوعة منها :

* إزام المرء المرئى وسيلةً فيها مضرةً عليه ، كالتجوع المضر ، و كالإسهار المهلك ، و كالوقوف المرهق ، فإن مثل هذه إذا كانت تؤخذ للتربية و يلحق صاحبها ضررٌ فلا يجوز ، و أما إذا فيها دُرْبَةٌ على الصبر ، و تعويدٌ على الجلد _ مع عدم المضرة _ فلا بأس ، على أن الإعراض عنها خيرٌ .

الثاني : أن تكون نافعةً مفيدةً ، فليست كلُّ وسيلةٍ مفيدة و نافعة ، فمن الوسائل ما هو مباحٌ لكن لا فائدة منها و لا منفعة فيها فتكون الترقية قاصرةً ناقصة ، و منفعة الوسيلة تؤخذ من طريقين :

أولهما : النصُّ الشرعي ، فإنه قد جاء في النصوص بيانٌ للطرق النافعة في الترقية بالنفس ، و أنها ذات نفع و ثمرة ، ك : الترغيب و التهيب ، و الأخذ بالمرئى في الشدة أحياناً للتأدب ، و الهجر الجميل ، و غير ذلك ، و كلها نافعةٌ بنصِّ الشارع .

ثانيهما : التجربة ، فمن الوسائل ما جُرِّبَ فظهر أثر نفعه فيكون مفيداً لذلك الأثر ، استناداً على الأصل العام أن الأشياء الأصل فيها الإباحة ، و أن ما نفع منها و أفاد فيؤخذ به .

و عليه أن يكون في أخذه بتلك الوسائل مراعيّاً الأولوية فيها ، فلا يجنح لقليلٍ منفعةٍ و أثرٍ مع وجود ما هو أكبرُ نفعاً منه .

ثانياً: الترقى في العمل التطبيقي التربوي ، فإنه متنوّعٌ منه العلمي ، و منه العملي ، و الأخذُ بالمُربّي في هذا الجانب رُقيّاً و صعوداً ضروري ، و الاقتصارُ على الدون ، و الركود على الحال من أصداد الكمال .
أولَ بدءِ المرءِ بتربية نفسه يكون آخذاً بالهين السهل على نفسه ، سالكاً معها مسلكَ الترغيبِ تاراتٍ ، و الترهيبِ تارة ، مجارياً لها ، عاذراً خطأها ، و كلُّ ذلكٍ للتعوّد على أن تتجلّد على الأخذ بالشدائد و الصعّبِ من الأعمال و العبادات .

و الأعمالُ العبادية متنوّعةٌ كثيرة ، منها ما يندرجُ تحت جنس الصلاة ، و منها المُضمّن لعمل الذكر ، و ما إلى ذلك .

إن السلوكَ بالمُربّي على سابلة الترقى و الصعود في الجانب العملي و العلمي من أهم ملامح هذه القاعدة التربوية النفيسة ، كما أن إغفالها و إهمالها و تركها ، و عدم رعايتها ترقياً شرخٌ خطرٌ في التربية .

ففي الصلاة يكون بدؤه _ بعد إتيانه بما يكون من لوازم المسلم في يومه و ليلته [الرواتب ، الوتر ، القيام] _ بصلاة الضحى ، و النفل المطلق ، و سائر الصلوات النوافل المُستحب الإتيان بها .

فنتلخّصُ إلى أن يكون شأنه في السير في الترقى في صلاته على النحو التالي :

1. النوافل المؤكدة على المرء إتيانه بها ، ك : السنن الراتبة ، و الوتر ، و قيام الليل .

2. النوافل المستحبة المقيدة ، ك : صلاة الضحى .

